ذكريات من ايطاليا

بقلم الأستاذ زكى محمد حسن
عضو بعثة الآثار الاسلامية بالسربون بباريس

سيراكيوز ــ نابلى ــ بركان فيزوف ــ بومبى ــ روما

فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ، أخذت السفينة تمخر بنا عباب البحر عائدة إلى أوربا ، وأخذ شاطىء الاسكندرية يغيب عن أنظارنا شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشى، وأصبحنا بين زرقتين : زرقة الماء، وزرقة السماء .

خمسون يوماً من عطلتى الصيفية قضيتها فى مصر ، رأيت تطوراً فى الحياة الاجتماعية ، لست أدرى ما مداه : رأيت فى البعض ميلا للتفرنج ونبذاً للتقاليد ، وفى آخرين تهوراً فى ذلك ومبالغة فيه ؛ ورأيت فريقاً يرقب الحوادث عن كثب ، وليس يدرى أى الطريقين يسلك ، ولا أى الخطتين يتبع .

ولن أعرض اليوم لهذا التطور ؛ ولكنى أود لو تنبه القوم إلى أن تقليد الغرب ــ دون تبصر أو روية ــ سوف يكون وخيم العاقبة ، وسوف يؤدى بنا إلى انهدام الأسرة والزواج كأسين من أسس الحياة الاجتماعيــة فى مصر ؛ وفى المشاهدة أكبر دليل ، ففى بلد دينها المسيحية كانجلترا تدل الاحصائيات الرسمية قبل الحرب على وجود نحو ٦٠٠ قضية طلاق فى العام ، بينما بلغ هذا العدد فى العام الماضى نحو ٤٠٠٠، ذلك عدا نحو ٢٠٠٠٠ قضية يمنح فيها الزوجان حق الانفصال .

وقصارى القول أن الحرية الكبيرة والامتيازات الجمة التى حصل عليها نساء الغرب ــ بعد الحرب الكبرى ــ تجعله يئن الآن تحت عبء داء اجتماعى كبير ، وتهدد بالقضاء على الزواج كنظام اجتماعى محترم؛ ونظرة واحدة إلى عامة الشعب وطبقاته الوسطى فى فرنسا، وانجلترا ، وألمانيا، تؤيد قولنا كل التأييد.

ظلت السفينة تسير بنا فى بحر هادىء ، ومضى الوقت سراعاً إلى أن كان ظهر يوم الاثنين حين لاحت لنا فى الأفق جزيرة صقلية؛ ولم يمض وقت طويل حتى وقفت بنا الباخرة (اسبيريا) على مقربة من (سيراكيوز) ثغرها الشرقى الذى يرجع تأسيسه إلى عام ٧٣٥ قبل المسيح؛ والذى شتهر فى الحروب البونية ، بين روما وقرطاجنة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حين انتهى

الأمر به إلى الخضوع لروما بعد دفاع باسل كان من ابطاله (أرشميدس) صاحب النظرية المعروفة فى علم الطبيعة ، والذى يدعون أنه توصل بواسطة مرايا تعكس ضوء الشمس وتركزه إلى أن يحرق سفن العدو على بعد .

و (سيراكيوز) شهيرة بآثارها القديمة وأنقاضها اليونانية ، ومن ثم تقف الباخرة فى (ميناها) ساعتين ، يتاح فيهما لمن يريد من الركاب أن يستمتع برؤية هذه الآثار ، ولما كانت الباخرة كبيرة،فإنها تضطر إلى أن ترسو فى عرض البحر على أن يأتيها زورق بخارى ينقل هؤلاء الركاب إلى الشاطىء ، ثم يعيدهم إلى الباخرة بأجرة قدرها نحو ١٣ قرشاً للراكب الواحد .

وما وطأت أقدامنا أرض (سيراكيوز) حتى أحاط بنا جمع من التراجمة والأدلاء ، ولم يكن هذا أول عهدى بهم ، فقد عرفتهم قبل ذلك فى (البندقية) ، ثم أخيراً فى (نابلى) و (روما) ؛ وهم فى (إيطاليا) كلها طائفة يجب على الأجنبى أن يكون على حذر منها ، فان شعارها : الالحاح ، والخديعة ، والطمع .

بدأ كل منهم يقتنص فريسته ، ولكنى رأيت عن كثب صفاً من عربات الخيل كثيرة الشبه بأمثالها فى الاسكندرية ، غير أنها تمتاز كغيرها من العربات فى إيطاليا (بعدادات) تحدد الأجرة على نحو ما فى السيارات بالبلاد الأخرى ؛ ولما كنت لا أثق كثيراً بما يقوله أمثال هؤلاء التراجمة ، فقد رأيت أن أعتمد على القليل الذى أعرفه من اللغة الايطالية،وعلى الدليل الانجليزى الذى أحمله ، فركبت إحدى هذه العربات ، وطلبت إلى السائق أن يسير بى إلى متحف المدينة ، ثم إلى مناطقها الأثرية .

وانطلقت العربة تسير بنا فى شوارع مدينة كثيرة الشبه بمدن الشرق : شمسها مشرقة ، وشوارعها مرصوفة بالأحجار ، أهلها سمر البشرة ؛ وليس فيها من الجمال والروعة ما يشعرك بأنها جزء من أوربا ، ولا سيما إذا لاحظت سطوح بيوتها المستوية ، وسكانها البسطاء ، وعرباتها (الكارو) وغير ذلك ؛ وانتهى بنا المطاف إلى دار الآثار فأعجبت بما تحويه من تحف أثرية ، ثم واصلنا السير إلى ضواحى المدينة،حيث المنطقة الأثرية وفيها أنقاض المدينة القديمة ، وأهمها مسرح كبير محفور منذ عهد الرومان فى الصخور أهليلجى الشكل ، يبلغ قطره نحو ١٤٠ متراً ، ثم مسرح (إغريقى) وعدد من محاجر صخرية شاهقة إلى جانبها حديقة غناء وكهوف كبيرة ، أحدها مشهور بتركيبه العجيب الذى يسبب صدى لما يصدر فيه من كلام أو أصوات ، حتى لقد يجمع الحارس فريقاً من السياح ، ثم يبدأ فى الكلام ، وما هى إلا بضع ثوان بعد كل كلمة أو حركة من السياح أو من الحارس حتى يسمع صداها واضحاً جلياً .

ثم انتهت بنا الزيارة إلى الدهاليز المشهورة فى باطن الأرض (Catacombes)؛ وهناك مثلها فى (نابلى) و(روما) و(باريس)، ولم تكن فى أول الأمر إلا محاجر مهجورة؛ ولكنها خصصت بعد ذلك لدفن الموتى، وكان المسيحيون يأوون إليها فى عصور الاضطهاد الأولى ويستطيعون فيها القيام بطقوسهم الجنائزية ودفن موتاهم بدلا من حرقهم، كما كان الحال عند الوثنيين.

وأخيراً عدت إلى الباخرة، وأقلعت بنا ميممة شطر (نابلى) حيث نهاية رحلتى فيها؛ ولما كنت أحرص على أن أرى (نابلى) تظهر فى الأفق، وأن أرقب دخول الباخرة (ميناءها) فقد بكرت فى الساعة السادسة من صباح الثلاثاء فى الصعود على ظهر الباخرة؛ وكان منظر المرتفعات يتوجها بركان (فيزوف) ومنظر (نابلى) على سفح هذه المرتفعات بمنازلها طبقة فوق أخرى على شكل مدرج، بعضها فى مستوى أبنية الميناء، وبعضها معلق فوق المرتفعات يطل أصحابه على باقى المدينة، وعلى البحر الأبيض . . . . أقول كان كل ذلك وغيره مما يضيق الخيال عن وصفه مصدقاً لما فى اللغات الأوروبية من أمثال معناها «إن مت قبل أن ترى (نابلى) فقد فاتك كل شيء»، وفى المثل الانجليزى See Naples and die .

وفى الساعة السابعة رست الباخرة فى ميناء (نابلى)، فتركتها إلى الجمرك، ولم تمض ساعة من الوقت حتى كنت فى غرفتى بأحد الفنادق أعد العدة لزيارة المدينة، ولم أكن أدرى بأى الأشياء أبدأ، فرأيت أن أركب عربة طافت بى أهم شوارع المدينة، وكانت تسير أحياناً سيراً حلزونياً، لا ألبث معه أن أرانى فى طريق عال يطل على آخر أقل منه علواً، وهكذا حتى سطح البحر، ولم يكن يسعنى حين ذاك إلا أن أترك العربة بين حين وآخر برهة من الزمن لأمتع فيها الطرف بمنظر خليج (نابلى) وطرقاتها، وحدائقها، وميادينها العديدة، ونافوراتها الجميلة.

وفى (نابلى) كما فى (روما) تتمثل الحياة الايطالية بأجلى معانيها: مرح الأهالى وخفة روحهم، ونهضة جديدة يريد بها هذا الشعب أن يتقعد مكانه بين أمم أوربا الكبيرة؛ ولكنك إن دققت النظر، فلا بد قانع بأنك لا زلت قريباً من الشرق تشاهد كثيراً من عاداته؛ وقد يتاح لك أن ترى أناساً حفاة الأقدام لباسهم رثة وعلى وجوههم سيماء البؤس، وإن كانوا لا يشعرون؛ ولست أنسى أنى أقمت فى (لندن) وفى غيرها من مدن (انجلترا) مدة طويلة، ولا أذكر أن نظرى وقع فيها على صبى حافى القدمين.

ولفت نظرى فى (نابولى) وفى (روما) بعد ذلك: نظام فى عربات الترام (والأتوبيس)، هو أن لها بابين: أحدهما لدخول الركاب والآخر لنزولهم؛ ومهما يكن من شيء فوسائل الراحة فيها ليست موفورة، والمقاعد - على نحو ما فى باريس - أكثرها خشبى غير مريح تجعلنا نحمد

أهل لندن على عرباتهم ذات المقاعد الوثيرة والدرجة الواحدة .

زرت بعد ذلك متحف (نابلي) ، فوجدته غنياً بعادياته وأكثرها مما اكتشف في حفريات (بومبي Pompéi) ؛ وفي اليوم التالي كان طوافي بأكثر الآثار المشهورة والكنائس القديمة مما لا يتسع المجال لوصفه أو الاحاطة بجماله .

أما اليوم الثالث فقد خصصته لزيارة بركان (فيزوف) وأطلال (بومبي)،ومن ثم بكرت إلى المحطة لأستقل قطاراً يسير في ضواحي (نابلي) – على نحو خطي المطرية وحلوان في القاهرة – ولكن جيوش التراجمة والأدلاء أحاطت بي إحاطة السوار بالمعصم : هذا يكلمني بالايطالية،وذاك بالانجليزية ، وغيرهما بالفرنسية ؛ ورابع يمنيني بالوعود ، وآخر يريد إطلاعي على ما يحمله من خطابات الشكر وبطاقات المديح .

ولم أستطع النجاة من إلحاحهم إلا حين أفهمتهم أني أدرس الآثار ، وأني على استعداد لأن أشرح أطلال المدينة لمن يريد منهم ذلك – وهكذا ركبت القطار إلى (بومبي) بعد أن اشتريت أيضاً تذكرة تصدرها شركة (كوك) لزيارة قمة بركان (فيزوف) – وسار القطار بنا في ضواحي (نابلي) وإلى يميننا البحر الأبيض ، وعن يسارنا المرتفعات البركانية ، وعلى سفوحها مزارع الكروم .

ووصلنا (بومبي) بعد ساعة وبضع دقائق ، وتيممت غيري من السواح إلى عامل يقيد أسماءنا ويفحص جوازات السفر ، ومن ثم يتقدم كل منا للسير بين أطلال المدينة ؛ والذي يلاحظه السائح :أن الحكومة الايطالية تبذل جهدها في جذبه إلى بلادها وتغريه بالتسهيلات المختلفة ، فهي لا تتقاضى منه رسماً للتأشير على جواز السفر ، ولا أجراً لزيارة المتاحف أو الأبنية الأثرية ؛ بيد أنها تطلق عليه جيوش التراجمة والأدلاء وتطالبه بتعريفة مرتفعة لأجور الفنادق ونفقات السفر والانتقال ، يدفع فوقها ضرائب نسبية وغير ذلك .

أما (بومبيPompéi) فكانت في عهد (الرومان) مدينة صغيرة،سكانها ثلاثون ألف نسمة، يهرع إليها أغنياء الرومان لقضاء وقت الراحة ؛ ولكن ثوران بركان (فيزوف) سنة ٧٩ م ، ردمها تحت طبقات من الرماد ، فأصبحت نسياً منسياً إلى أن كان عام ١٧٤٧ ، حين وجد أحد الفلاحين تماثيل في أنقاضها ، فبدأت أعمال الحفر وظلت حتى أيامنا هذه ، وتمكن القوم من إزاحة التراب عن خمسى المدينة .

[يتبع] زكي محمد حسن